وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
المرحلة الثالثة
المادة: فلسفة التاريخ

# علاقة الأسطورة بالتاريخ

أ. د. مثنى عباس عواد

**المقدمة:**

شغلت الأساطير موقعاً بارزاً في الحياة الروحية والفكرية لأمم العالم القديم، وكان للأساطير علاقة، ربما كانت وثيقة، بالتاريخ، لما تضمنته من مادة تاريخية أولية، وتفسير لحوادث التاريخ ويمكننا القول إن النمط القصصي الذي تميزت به الأسطورة كان الخيط الأول في نسيج سداه الأسطورة ولحمته التاريخ، يعكس طبيعة العلاقة (الجدلية) التي تربط الأسطورة بالتاريخ، ويمنح التاريخ أهمية كعنصر من العناصر المكونة للأسطورة، وأداة اعتمدتها الأسطورة للإفصاح عن طبيعتها ومكنوناتها وغاياتها، ومن ثم فإن البحث هذا سوف يتناول ما تتضمنه الأساطير من مادة تاريخية وما دونته من حوادث (أسطورية) وقعت في الماضي، بما يوضح طبيعة العلاقة بين الأسطورة والتاريخ فضلاً عن استعراض ما قد تتضمنه بعض أساطير الأمم القديمة من تفسير لحوادث التاريخ في بعض حقبه، وتعليل لمغزى تلك الحوادث.

**معنى الأسطورة في علاقتها بالتاريخ:**

إن علاقة الاسطورة بالتاريخ علاقة جدلية تعكس ثنائيات متناقضة يستدعي بعضها بعضاً فالأسطورة والتاريخ بينهما نوع من التعارض وان معنى الكلمة في اللغة العربية تشير معاجم اللغة إلى أن أصل كلمة أسطورة هو الفعل الثلاثي (سطر) بمعنى كتب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) أي وما يكتبه الملائكة مما يوحى إليهم وما يكتبونه من أعمال بني آدم، وتعني الأسطورة الحديث والحكاية، وكذلك يشير قوله تعالى: (أن هذا إلا اساطير الأولين)، أي ما هذا إلا أكاذيب الأولين قد سطروا ما لا حقيقة له، وانما بجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للأطراف به.

أما اللغات الأوربية الحديثة فأن مفرداتها المقابلة لكلمة أسطورة مشتقة جميعها من الكلمة اليونانية (Mythos)، والتي تعني في الأصل الكلمة المنطوقة، قبل أن تتعدد دلالاتها ويتسع معناها ليصبح القصة المتواترة أو الحكاية التقليدية عن الآلهة والأبطال.

أما المعنى الاصطلاحي الإنكليزي المعاصر فيشير إلى أن الأسطورة هي حكاية تحكى بوصفها أحداثاً وقعت في زمن بالغ القدم، وهي تشرح الظواهر الكونية والخارقة وتفسر سبب نشأتها.

## مميزات الأسطورة عن التاريخ:

إن الأسطورة تتميز على التاريخ من وجهة نظر كلود ليفي شتراوس من خلال زمنها غير المحدد، إذ هي تفسر الماضي والحاضر والمستقبل، في حين قد يقتصر التاريخ على حوادث حصلت في زمن غابر بعيد، مما يمنح الأسطورة شمولاً وأصالة، فالأسطورة إذن تهدف إلى الكشف عن الثوابت ولا تسعى بشكل أساسي للتعرف على تتابع الحوادث، مما يجعلها تستمر في حياتها حتى مع انبثاق السرد التاريخي، وتتعايش مع التاريخ في كثير من الأحيان دون أن تتجاوز على خصوصيته لأن لكل منهما هدفاً خاصاً به.

ويقول ميرسيا ايلياد وهو من أشهر علماء الميثولوجيا أن المفكرين الغربيين كانوا حتى نهاية القرن التاسع عشر يعدون الأسطورة ضرباً من الأوهام والحكايات الملفقة، إلا أنه لا يقرهم على ذلك، إذ يرى أن الأسطورة هي رواية لتاريخ مقدس يخبر عن أحداث وقعت في الزمان الأول قامت بها الآلهة والكائنات الخارقة العظيمة، وهذه الحوادث حقيقية في نظر الإنسان القديم، إذ تتضمن الأسطورة بحسب إيلياد، تاريخاً حقيقياً جرت حوادثه في بداية الزمان الأسطوري، وهي تصلح كأنموذج للسلوك البشري، فالإنسان بمحاكاته للأفعال والمغامرات التي تؤدي من قبل الآلهة والأبطال، إنما يفصل ذاته عن الزمان الدنيوي المحدد، ويلتحق سحرياً، بالزمان الأزلي المقدس.

ويفرق إيلياد بين الزمان الأسطوري (زمان النماذج)، وبين الزمان العادي (زمان النشاطات اليومية)، وهذا ما يوضح طبيعة التاريخ المقدس الذي اختصت به الاسطورة كما يرى، فالأسطورة تروي لنا كيف انه بفضل انجازات الآلهة وتلك الكائنات الخارقة ظهرت حوادث التاريخ وكانت الأساطير أحياناً تفسر حوادث التاريخ تفسيراً بطولياً، من خلال دورانها حول مؤسسي السلالات الحاكمة، وحول ملوك الماضي السحيق، وتأثيرهم توجيه مسار التاريخ من خلال حروبهم وحملاتهم العسكرية وأعمالهم الأخرى، فكان سرجون الأكدي (٢٧٣٠ – ٢٣١٦ ق.م) مثلاً يصور من خلال تلك الأساطير كأنه ملك شبه أسطوري خلال الألف الثاني قبل الميلاد، إذ تحكي الأسطورة قصة ولادته، ونجاته حينما كان داخل سلة تطوف في نهر الفرات، وكيفية ظهوره للسلطة، ومن ثم حملاته العسكرية بعد أن أصبح ملكاً، والمخاطر التي تعرض له والكوارث والمصائب التي حلت به وانتصاراته وكيفية قهره الجهة الغربية التي أشير لها في العمارنة (مصر) وفي خطوشا (الأناضول).

كانت الآلهة والكائنات الخارقة أو الأبطال التي تقوم بدور الوسيط بين القوى العليا وبين البشرية السفلة، العنصر المشترك في الأسطورة، لا تخلو من أسطورة من أساطير أمم العالم القديم، أما بقية مضمون الأسطورة فيمكن وصفه بأنه مكون مركب يصفه راثفين بأنه: "علم بدائي أو تاريخ أولي أو تجسيد لأخيلة لا واعية"، إذ تحدثت الأسطورة عن خلق الكون وبداياته وأصل تكوينه، وعن أصل الإنسان وخلقه وشروط وجوده وحركته على الأرض، وكذلك عن أصل النبات والحيوان، وتناولت الطقوس والعبادات وكيفية أدائها، بما يؤلف تاريخاً مقدساً رحباً يمتد إلى أزمنة موغلة في القدم، ويقدم مثلاً يجب أن يسير على نهجها وينسج على منوالها، ومن الواضح أن هذه المضامين المتنوعة والأغراض المتعددة اشتملت على مادة تاريخية (أسطورية) غزيرة أو هي مادة تشبه مادة التاريخ على وفق تقويم كولنغوود لها.

يمكننا أن نستخلص منها بعد تحليلها إلى عناصرها جانباً من حقيقة ما جرى في الماضي دون أن يكون بوسعنا اتخاذ وسيلة يمكن بواسطتها أن نميز بين ما هو واقعي وبين ما هو خيالي من تلك المادة أو شبه المادة التاريخية، إلا انه يمكن القول إن تلك المادة في كل الأحوال ساهمت في كشف ملامح بعض الجوانب الحضارية المهمة في تاريخ الأمم القديمة، وفي توضيح البناء الفكري للإنسان ووعيه بذاته وبالعالم المحيط به.

وعلى الرغم مما يمكننا أن نلاحظه من أن نشأة الأسطورة كانت ترتبط بالطقس الديني، مما يجعلها تتخذ منحاً بعيداً عن التاريخ، أو ربما بدت كأنها تشكل أصلاً له، فإن إحدى نظريات نشأة الأسطورة، وهي نظرية المدرسة التاريخية تشير إلى أن التاريخ هو الباعث للأسطورة وليس العكس، إذ الأساطير التي وصلتنا على وفق هذا الرأي تمثل في أصلها تاريخ البشرية الأولى، ومن ثم تكون الأسطورة قد نشأت على أساس مرتبط بالتاريخ.

إلا أننا نجد أن من الصعوبة الاطمئنان إلى رأي أصحاب نظرية المدرسة التاريخية الذي يقول أن التاريخ هو الأصل الذي أقيمت عليه الأسطورة لما فيه من تأويلات وافتراضات كثيرة، وهذا ما يجعلنا لا نتمكن من القطع بأمر تقدم التاريخ على الأسطورة أو العكس، وأيها يشكل أصلاً للآخر، لاسيما أن بعض بواعث نشأة الأسطورة كان مشابهاً للباعث الذي حدا بالإنسان على أن يسعى لمعرفة ماضيه، ذلك أن الأسطورة كانت في رأي العديد من الباحثين ترتبط في جزء من دواعي انبعاثها بتساؤلات عن خلق الإنسان وأصل الكون ونظامه.

سعى الإنسان من هذا كله إلى معرفة ذاته من خلال وسائل عدة، منها التعرف على ماضي البشرية، وإدراك مغزى حوادثه وأنماط مسيرته، كما أن كلاهما ارتبط بفطرة الإنسان: التاريخ، والأسطورة، التي تماهت مع الدين، إذ الإنسان مؤرخ بفطرته – كما الدين ملازم لفطرته – مارس التاريخ شفاهاً حتى قبل أن يكتشف الكتابة ويستعملها، من بين استعمالات عديدة لتدوين حوادث الماضي.

**ما هو دور الرؤى الأسطورية للتاريخ:**

١- حفلت الاساطير برؤى وتفسيرات للحياة والكون والإنسان وكان الإنسان خلقه وأفعاله ومصيره في مقدمة الأمور التي وضعتها الأسطورة تحت مجهر رؤاها وتفسيراتها، لذلك عدت اسطورتا (الخليقة) و(الطوفان) في أدبيات أمم العالم القديم بأجمعها أساس الاساطير كلها.

٢- عبرت أساطير نشأة الخلق لدى الأمم القديمة عن محاولات قامت بها البشرية الأولى للتعرف على كنه بداية الحياة على الأرض وتفسير مغزاها، إذ تكشف هذه الأساطير عن فكرة التطلع الإنساني الدائب إلى الكشف عن بواعث الأحداث والرغبة في التنبؤ بسيرها والتحكم بمصيرها، كما أنها لا تخلو من محاولة للعثور على معنى لحياة الإنسان.

٣- أن الآلهة هي التي تتحكم في طبيعة الحوادث التي تمر بها البشرية عبر تاريخها في جوانب حياتها وانظمتها المختلفة اجتماعية واقتصادية ودينية وسواها.